الحق - تبارك وتعالى - لعباده من لُطفه تعالى ورحمته ، يعظكم ؛ لأنه عزيز عليه أنْ يؤاخذكم بذنوبكم .

وتذييل الآية بهذا الشرط : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧﴾ [النور] حثٌّ وإهاجة لجماعة المؤمنين ، لينتهوا عن مثل هذا الكلام ، وألاَّ يقعوا فيه مرة أخرى ، وكأنه تعالى يقول لهم : إنْ عُدْتُم لمثل هذا فراجعوا إيمانكم ؛ لأن إيمانكم ساعتها سيكون إيماناً ناقصاً مشكوكاً فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ[1] فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾

﴿يُحِبُّونَ .. ١٩﴾ [النور] الحب عمل قلبى ، والكلام عمل لسانى ، وترجمة عملية لما فى القلب ، فالمعنى : الذين يحبون هذا ولو لم يتكلَّموا به ؛ لأن لهذه المسألة مراحل تبدأ بالحب وهو عمل القلب ، ثم التحدث ، ثم السماع دون إنكار .

ولفظاعة هذه الجريمة ذكر الحق سبحانه المرحلة الأولى منها ، وهى مجرد عمل القلب الذى لم يتحول إلى نزوع وعمل وكلام إذن : المسألة خطيرة .

والبعض يظن أن إشاعة الفاحشة فضيحة للمتهم وحده ، نعم هى للمتهم ، لكن قد تنتهى بحياته ، وقد تنتهى ببراءته ، لكن المصيبة

(١) الفاحشة : الفعلة القبيحة . والفواحش : الأمور القبيحة المنكرة [القاموس القويم ٢/٧٣] .

أنها ستكون أسْوة سيئة فى المجتمع .

وهذا توجيه من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى قضية عامة وقاعدة يجب أن تُرَاعى ، وهى : حين تسمع خبراً يخدش الحياءَ أو يتناول الأعراض أو يخدش حكماً من أحكام الله ، فإياك أنْ تشيعه فى الناس ؛ لأن الإشاعة إيجاد أُسْوة سلوكية عند السامع لمن يريد أن يفعل ، فيقول فى نفسه : فلان فعل كذا ، وفلان فعل كذا ، ويتجرأ هو أيضاً على مثل هذا الفعل ، لذلك توعد الله تعالى مَنْ يشيع الفاحشة وينشرها ويذيعها بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٩)﴾ [النور]

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يعصم أحداً من المعصية وعمل السيئة ، لكن الأسْوء من السيئة إشاعتها بين الناس ، وقد تكون الإشاعة فى حق رجل محترم مُهَاب فى مجتمعه مسموع الكلمة وله مكانة ، فإنْ سمعت فى حقِّه مَا لاَ يليق فلربما زهّدك مَا سمعتَ فى هذا الشخص ، وزهَّدك فى حسناته وإيجابياته فكأنك حرمتَ المجتمع من حسنات هذا الرجل .

وهذه المسألة هى التعليل الذى يستر الله به غَيْب الخَلْق عن الخَلْق ، إذن : سَتْر غيب الناس عن الناس نعمة كبيرة تُثرى الخير فى المجتمع وتُنميه ، ويجعلك تتعامل مع الآخرين ، وتنتفع بهم على علاَّتهم ، وصدق الشاعر الذى قال :

فَخُذْ بِعلْمى ولاَ تركَنْ إلىَ عَمَلِي ... وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾

انظر كم فضل من الله تعالى تفضّل به على عباده في هذه الحادثة ، ففي كل مرحلة من مراحل هذه القضية يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [النور] وهذا دليل على أن ما حدث كان للمؤمنين نعمة وخير ، وإنْ ظنوه غير ذلك .

لكن أين جواب لولا ؟ الجواب يُفهَم من السياق وتقديره : لَفُضحتُم ولَهلكتم ، وحصل لكم كذا وكذا ، ولك أنْ تُقدِّره كما تشاء . وما منع عنكم هذا كله إلا فضل الله ورحمته .

وفي موضع آخر يوضح الحق سبحانه منزلة هذا الفضل : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس] فالحق - سبحانه وتعالى - شرع منهجاً ويجب مَنْ يعمل به ، لكن فرحة العبد لا تتم بمجرد العمل ، وإنما بفضل الله ورحمته في تقبُّل هذا العمل . إذن : ففضْل الله هو القاسم المشترك في كل تقصير من الخَلْق في منهج الخالق عز وجل .

وبعد هذه الحادثة كان لا بُدَّ أنْ يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ[1] مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) زكا : طهر وصلح فهو زكي وهي زكية . [القاموس القويم ١/٢٨٧] قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٧٤٢) : « أي : ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشداً » . على قراءة (زَكَى) أما على قراءة (زكّي) : « أي أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم » .

كأن الشيطان له خطوات متعددة ليست خطوة واحدة ، وقد أثبت الله عداوته لبنى آدم ، وهى عداوة مُسبَّبة ليست كلاماً نظرياً ، إنما هو عدو بواقعة ثابتة ، حيث امتنع عن السجود لآدم ، وعصى أمر الله له ، بل وأبدى ما فى نفسه وقال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء] وهكذا علَّل امتناعه بأنه خير ، وكأن عداوته لآدم عداوة حسد لمركزه ومكانته عند ربه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يخبرنا بعداوة الشيطان من خلال امتناعه عن السجود ، إنما يحذرنا منه ، ويُنبِّهنا إلى خطره ويُربِّى فينا المناعة من الشيطان ؛ لأن عداوته لنا عداوة مركزة ، ليست عداوة يمارسها هكذا كيفما اتفق ، إنما هى عداوة لها منهج ولها خطة .

فأول هذه الخطة أنه عرف كيف يقسم ، فدخل على الإنسان من باب عزة الله عن خَلْقه ، فقال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص]

فلو أرادنا ربنا ـ عز وجل ـ مؤمنين ما كان للشيطان علينا سبيل ، إنما تركنا سبحانه للاختيار ، فدخل علينا الشيطان من هذا الباب ؛ لذلك قال بعدها : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر] فمَنِ اتصف بهذه الصفة فليس للشيطان إليه سبيل .

إذن : مسألة العداوة هذه ليست بين الحق سبحانه وبين الشيطان ، إنما بين الشيطان وبنى آدم .

فقوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢١﴾﴾ [النور] نداء : يا من آمنتم بإله كأنه يقول : تَنبَّهوا إلى شرف إيمانكم به ، وابتعدوا عما يُضعف هذا الإيمان ، أو يفُتُّ فى عَضُد المؤمنين بأىِّ وسيلة ، وتأكَّدوا أن الشيطان له خطوات متعددة .

﴿لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .. (٢١)﴾ [النور] فإنْ وسوس لك من جهة ، فتأبَّيْتَ عليه ووجد عندك صلابةً فى هذه الناحية وجَّهك إلى ناحية أخرى ، وزيَّن لك من باب آخر ، وهكذا يظل بك عدوك إلى أنْ يُوقعك ، فهو يعلم أن لكل إنسان نقطة ضَعْف فى تكوينه ، فيظل يحاوره إلى أنْ يصل إلى هذه النقطة .

والشيطان : هو المتمرد العاصى من الجن ، فالجن مقابل الإنس ، فمنهم الطائع والعاصى ، والعاصى منهم هو الشيطان ، وعلى قمتهم إبليس ؛ لذلك يقول تعالى فى سورة الكهف : ﴿إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠)﴾ [الكهف]

وسبق أن ذكرنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين المعصية من قبل النفس والمعصية من قبل الشيطان ، فالنفس تُلح عليك فى معصية بعينها لا تتعدَّاها إلى غيرها ، أما الشيطان فإنه يريدك عاصياً على أىٍّ وجه من الوجوه ، فإن امتنعت عليه فى معصية جَرَّك إلى معصية أخرى أياً كانت .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. (٢١)﴾ [النور] ولك أنْ تسأل : أين جواب (مَنْ) الشرطية هنا ؟ قالوا : حُذف الجواب لأنه يُفهم من السياق ، ودَلَّ عليه بذكر علَّته والمسبَّب له ، وتستطيع أن تُقدِّر الجواب : مَنْ يتبع خطوات الشيطان يُذقْه ربه عذاب السعير ؛ لأن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر ، فَمَنْ يتبع خطواته ، فليس له إلا العذاب ، فقام المسبَّب مقام جواب الشرط .

والكلام ليس كلام بشر ، إنما هو كلام رَبِّ العالمين . وأسلوب القرآن أسلوب رَاقٍ يحتاج إلى فكر وَاعٍ يلتقط المعانى ، وليس مجرد كلام وحَشْو .

ألاَ ترى بلاغة الإيجاز في قوله تعالى من سورة النمل : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

ثم يقول تعالى بعدها : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل]

وتأمل ما بين هذين الحدثين من أحداث حُذفت للعلم بها ، فوعي القارىء ونباهته لا تحتاج أن نقول له فذهب الهدهد .. وو إلخ فهذه أحداث يُرتِّبها العقل تلقائياً .

وقد أوضح الشيطانُ نفسه هذه الخطوات وأعلنها ، وبيَّن طرقه في الإغواء ، ألم يقل : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] فلا حاجةَ للشيطان بأصحاب الصراط المعوج لأنهم أتباعه ، فالشيطان لا يذهب إلى الخمارة مثلاً ، إنما يذهب إلى المسجد ليُفسِد على المصلين صلاتهم ، لذلك البعض ينزعج من الوساوس التي تنتابه في صلاته ، وهي في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، ولولا أنك في طاعة وعبادة ما وسوس لك .

لكن مصيبتنا أن الشيطان يعطينا فقط طرف الخيط ، فنسير نحن خلْفه (نكُرّ في الخيط كَرّاً) ولو أننا ساعة ما وسوس لنا الشيطان استعذْنا بالله من الشيطان الرجيم ، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

إذن : إياك أنْ تقبل منه طرف الخيط ؛ لأنك لو قَبِلْته فلن تقدر عليه بعد ذلك .

ومن خطوات الشيطان أيضاً قوله : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف]

إذن : للشيطان فى إغواء الإنسان منهج وخُطّة مرسومة ، فهو يأتى الإنسان من جهاته الأربع : من أمامه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . لكن لم يذكر شيئاً عن أعلى وأسفل ؛ لأن الأولى تشير إلى عُلُوّ الربوبية ، والأخرى إلى ذُلّ العبودية ، حين ترفع يديك إلى أعلى بالدعاء ، وحين تضع جبهتك على الأرض فى سجودك ؛ لذلك لا يأتيك عدوك من هاتين الناحيتين .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ .. (٢١) ﴾ [النور]

قلنا : إن فضل الجزاء يتناوبه أمران : جزاء بالعدل حين تأخذ ما تستحقه ، وجزاء بالفضل حينما يعطيك ربك فوق ما تستحق ؛ لذلك ينبغى أن نقول فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . فإنْ عاملنا ربنا - عز وجل - بالعدل لَضِعْنا جميعاً .

لكن ، فى أىِّ شىء ظهر هذا الفضل ؟ ظهر فضل الله على هذه الأمة فى أنه تعالى لم يُعذِّبها بالاستئصال ، كما أخذ الأمم السابقة ، وظهر فَضْلُ الله على هذه الأمة فى أنه تعالى أعطاها المناعة قبل أن تتعرَّض للحَدث ، وحذرنا قديماً من الشيطان قبل أن نقع فى المعصية ، وقبل أن تفاجئنا الأحداث ، فقال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾ [طه] وإلا لغرق الإنسان فى دوامة المعاصى .

لأن التنبيه للخطر قبل وقوعه يُربِّى المناعة فى النفس ، فلم يتركنا ربنا - عز وجل - فى غفلة إلى أنْ نقعَ فى المعصية ، كما نُحصِّن نحن أنفسنا ضد الأمراض لنأخذ المناعة اللازمة لمقاومتها .

وقوله تعالى : ﴿مَا زَكَىٰ منكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا .. ﴿٢١﴾﴾ [النور] (زكَى) تطهَّر وتنقَّى وصفَّى ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور] وقال : ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور] لأنه تعالى سبق أنْ قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٩﴾﴾ [النور] ذلك في ختام حادثة الإفك التي هزَّتْ المجتمع الإسلامي في قمته ، فمسَّتْ رسول الله ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق وزوجته أم المؤمنين عائشة وجماعة من الصحابة .

لذلك قال تعالى (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما قيل (عَلِيمٌ) [النور : ٢١] بما تُكِنُّه القلوب من حُبٍّ لإشاعة الفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿وَلَا يَأْتَلِ[2] أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

تورط في حادثة الإفك جماعة من أفاضل الصحابة ممن طُبِع على الخير ، لكنه فُتِن بما قيل وانساقَ خلف مَنْ روَّجوا لهذه الإشاعة ،

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبي في تفسيره (٤٧٤٢/٦) : « المشهور من الروايات أن هذه الآيات نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة ومسطح بن أثاثة ، وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين وكان أبو بكر ينفق عليه ، فلما كان أمر الإفك وقال مسطح في عائشة ابنة أبي بكر ما قال حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً » .

(٢) يأتل : معناه يحلف ، وقالت فرقة : معناه يقصر . [القرطبي ٤٧٤٣/٦] .

وكان من هؤلاء مسطح بن أثاثة ابن خالة أبى بكر الصديق ، وكان أبو بكر ينفق عليه ويرعاه لفقره ، فلما قال فى عائشة ما قال وخاض فى حقها أقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليه ، وقد كان يعيش وأهله فى سَعَة أبى بكر وفضله ؛ لأن هذه الفتنة جعلتْ بعض أهل الخير يضنُّ به .

وهذا نموذج لمن ينكر الجميل ولا يُقدِّر صنائع المعروف ، وهذا الفعل يُزهِّد الناس فى الخير ، ويصرفهم عن عمل المعروف ، والله تعالى يريد أنْ يُصحِّح لنا هذه المسألة ، فهذه نظرة لا تتفق وطبيعةَ الإيمان ؛ لأن الذى يعصى الله فيك لا تكافئه إلا بأنْ تطيع الله فيه .

وحين تترك مَنْ أساء إليك لعقاب الله وتعفُو عنه أنت ، فإنما تركتَه للعقاب الأقوى ؛ لأنك إنْ عاقبته عاقبته بقدرتك وطاقتك ، وإنْ تركتَ عقابه لله عاقبه بقدْر طاقته تعالى وقدرته .

إذن : العافى أقسى قَلْباً من المنتقم ، وسبق أنْ مثّلنا لذلك بالأخ حين يعتدى على أخيه الأصغر ، فيأتى الأب فيجد صغيره مهاناً مظلوماً ، فيأخذه فى حضنه ، ويحاول إرضاءه وتعويضه عمَّا لَحقه من ظلم أخيه ، كذلك الحال فى هذه المسألة ولله المثل الأعلى .

ومن هنا يجب عليك أن تُسَرَّ بمَنْ جعل الله فى جانبك ، وتُحسن إليه ، لا أنْ تَردَّ له الإساءة بمثلها .

إذن : نزلت هذه الآية فى مسطح بن أثاثة حين أقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليه وعلى أهله ، وأنْ يمنع عنه عطاءه وبرّه ، نزلت لتصحح للصِّديق هذه النظرة وتُوجِّه انتباهه إلى جانب الخير الباقى عند الله لا عند الناس .

فقال تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢) ﴾ [النور]

﴿ يَأْتَلِ .. (٢٢) ﴾ [النور] ائتلى مثل اعتلى تماماً ، ومنها تألّى يعنى : حلف وأقسم ، يوجه الحق - تبارك وتعالى - الصِّديق أبا بكر ، ويذكر لفظ ﴿ أُوْلُوا .. (٢٢) ﴾ [النور] الدال على الجماعة لتعظيمه لما له من فضل ومنزلة فى الإسلام ، ففى كل ناحية له فضل ؛ لذلك أعطاه وصفيْن مثل ما أعطى للنبى ﷺ ، فقال للصِّديق : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. (٢٢) ﴾ [النور] وقال للنبى ﷺ : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

كذلك ، ألاَ ترى الصِّدِّيق ثانيَ اثنين فى الغار ، وثانى اثنين فى أمور كثيرة ، فهو ثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى قبول دعوة الإسلام الأولى ؛ لذلك صدق سيدنا رسول الله ﷺ حين قال عن الصِّديق : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان » . يعنى : فى التسابق فى الخير « فسبقته إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى إليها لاتبعته »[1] .

ولما كان لأبى بكر أفضال كثيرة فى زوايا متعددة لم يخاطبه بصيغة المفرد ، إنما بصيغة الجمع تكريماً وتعظيماً .

ألاَ ترى الصِّديق مع ما عُرِف عنه من الحلم ورقة القلب لما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحدثتْ مسألة الردَّة يقف ويقول : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدُّونها لرسول الله لجالدتهم

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ : « إن أمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب أبى بكر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٥٤) .

بالسيف ، لو لم أجد إلا الذر »[١] .

هذا موقف الصِّديق رقيق القلب ، ليِّن الجانب ، صاحب الرحمة والحنان ، الذى تقول عنه ابنته « إنه رجل بكَّاء[٢] » يعنى : كثير البكاء . فى حين يعارضه فى أمر الحرب عمر مع ما عُرِف عنه من الشدة والقسوة على الكفار . لكن هذا التناقض فى موقف كل منهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس طَبْعاً غالباً على المسلم إنما موقف يعود المسلم إليه ، فموقف الردة هو الذى جعل من الصِّدِّيق أسداً شجاعاً قاسيَ القلب ، ولو أن عمر فى مكانه من المسئولية وفعل كما فعل الصِّدِّيق لقالوا : شدَّة ألِفها الناس من عمر .

فكأن الإسلام لا يريد أن يطبع المسلم على طبْع خاص يظل عليه ، إنما الموقف هو الذى يطبعك إيمانياً ، وهذا ما ذكرناه فى قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

فالمسلم ليس مفطوراً لا على الشدة وحدها ، ولا على الرحمة وحدها ، إنما عليه أنْ يتصرَّف فى كل موقف بما يناسبه على ضوء ما شرع الله .

فقوله تعالى : ﴿ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ .. (٢٢) ﴾ [النور] يقول للصِّدِّيق : أنت رجل فاضل صِدِّيق ، وعندك سعة فلا تعطى ولا تُؤْثر

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة بلفظ : « والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦) كتاب الصلاة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن » .

على نفسك من ضيق ، ولا يليق بالفاضل أن يقطع صلته ورحمه لمثل هذا الخطأ الذى وقع فيه مسْطح ، خاصة أنه أخذ جزاءه كما شرع الله ، وعُوقِبَ بحدِّ القذف ثمانين جلْدة ، وليس لك أن تعاقبه بعد ذلك .

ومن سماحة الإسلام أن مَنْ وقع فى حَدٍّ وعُوقب به لا يجوز لأحد أنْ يُعيِّره بذنبه ؛ لأنه تاب وأناب وطهَّره الله منه بالحدِّ ، وانتهت المسألة ، وليس لأحد أن يدخل بين العبد وربه .

فكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : ارجع إلى فضلك يا أبا بكر ، وعُدْ أنت إلى سعتك ، وكُنْ موصولَ المروءة ، ولا تقطع رحمك ، يريد - سبحانه وتعالى - أنْ يُصفِّى ما فى النفوس من آثار هذه الفتنة التى زلزلتْ المجتمع المؤمن فى المدينة .

ولا يليق بذى الفضل والسَّعَة أنْ يعامل الناس بالعدل ، فصحيح أن مسْطح كان يستحق هذه القطيعة وهذا الحرمان ، إنما هذا الجزاء لا يليق بالصِّدِّيق صاحب الفضل والسَّعَة .

ولو أجريتَ إحصاءً للمؤمنين بإله وللكافرين فى الكون ، ستعلم أن المؤمنين قلَّة والكافرين كثرة ، فهل قال الله تعالى لجنود خيره فى الكون : أعطوا مَنْ آمن ، واتركوا مَنْ كفر ؟ وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مثَلاً فى ذاته عز وجل ، فكما أنه يعطى مَنْ كفر به ويرزقه ، بل ربما كان أحسن حالاً ممَّنْ آمن ، فأنت كذلك لا تمنع عطاءك عمَّنْ أساء إليك .

لذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾ [البقرة]

فإنْ كنت باراً بأحد وبدر منه شيء فلا تحلف بالله أنك لا تبرُّه ، فقد تهدأ ثورتك عليه ، وتريد أنْ تبرَّه ، وتتحجج بحلفك ، إذن : لا تجعلوا الله عُرْضة لحلف يمنعكم من المعروف .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [النور] صحيح أن مِسْطح من ذوى قُرْبى أبى بكر ومن المساكين ، لكن يعطيه الله نيشاناً آخر ، فلم يخرجه مَا قال من وصف المهاجر ، ولم يخرجه ذنبه من هذا الشرف العظيم .

فمن فضل الله تعالى على عباده أن السيئة لا تُحبط الحسنة ، إنما الحسنة بعد السيئة تحبطها ، كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

فرغم ما وقع فيه مِسْطح ، فقد أبقاه الله فى العَتْب على أبى بكر ، وتحنين قلبه ، وأبقاه فى المهاجرين .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا .. (٢٢)﴾ [النور] العفو : ترك العقوبة على الذنب ، لكن قد تعفو عن المذنب ثم تُؤنبه ، وتمنّ عليه بعفوك ، وتُذكِّره دائماً أنه لا يستحق منك هذا العفو ؛ لذلك يحثنا ربنا - تبارك وتعالى - على الصفح بعد العفو ، والصفح : تَرْك المنِّ وعدم ذكر الزلة لصاحبها حتى تصبح العقوبة عنده أهونَ من عفوك عنه .

ذلك لأن الحق سبحانه حينما يُشرِّع للبشر ما يُنظِّم العلاقات بينهم يراعى جميع مَلكات النفس ، لا يقتصر على الملكات العالية فحسب ، إنما لكل الملكات التى تنتظم الخَلْق جميعاً ، وليأخذ كل منَّا على قَدْر إيمانه وامتثاله لأمر ربه

وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

ولو تأملنا حقيقة المثلية فى رَدِّ الإساءة لوجدناها صعبة فى تقديرها ، فإنْ ضربك شخصٌ ضربة ، أعندك القدرة التى تردُّ بها هذه الضربة بمثلها تماماً بنفس الطريقة ، وبنفس القوة ، وبنفس الألم ، بحيث لا تكون أنت مُعْتدياً ؟ إنك لو تأملت هذه المثلية لفضَّلْتَ العفو بدل الدخول فى متاهات أخرى .

وسبق أن ذكرنا قصة المرابى الذى اشترط على المدين إنْ تأخر فى السداد أن يقطع رطلاً من لحمه ، ولما تأخر الرجل فى السداد خاصمه عند القاضى ، وأخبره بما كان بينهما من شرط ، وكان القاضى ذكياً فقال للمرابى : خُذ السكين واقطع رطلاً من لحمه ، لكن إنْ زاد أخذناه منك ، وإنْ نقص أخذناه منك ، فتراجع المرابى لأنه لا يستطيع تقدير هذه المسألة .

فإن انصرفنا عن المعاقبة بالمثل وَسِعَنا العفو ، وانتهت المسألة على خير ما يكون .

وفى مرتبة أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فالحق - تبارك وتعالى - يجعل لنا مراتب فى رَدِّ السيئة ، فالعقاب بالمثل مرتبة ، وكَظْم الغيظ مرتبة ، والعفو مرتبة ، والصفح مرتبة ، وأعلى ذلك كله مرتبة الإحسان إلى مَنْ أساء إليك ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ثم يجعل الحق سبحانه من نفسه أُسْوة لعباده فيقول : ﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [النور] فكما تحب أن يغفر الله لك ذنبك ، فلماذا لا تغفر أنت لمَنْ أساء إليك ؟ وكان ربنا - عز وجل - يريد أن يُصلح ما بيننا ؛ لذلك لما نزلتْ هذه الآية فى شأن أبى بكر

قال : أحب يا رب ، أحب يا رب ، أحب يا رب[1] .

ومعنى ﴿ألا .. (٢٢)﴾ [النور] أداة للحضِّ وللحثِّ على هذا الخُلُق الطيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور] فمن تخلَّق بأخلاق الله تعالى فليكُنْ له غفران ، وليكن لديه رحمة ، ومَنْ منّا لا يريد أن يتصف ببعض صفات الله ، فيتصف بأنه غفور ورحيم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[2] الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾

نلحظ أن الآيات تحدثتْ عن حَدِّ القذف وما كان من حادثة الإفك ، ثم ذكرت آية العتاب لأبى بكر فى مسألة الرزق ، ثم عاد السياق إلى القضية الأساسية : قضية القذف ، فلماذا دخلتْ مسألة الرزق فى هذا الموضوع ؟

قالوا : لأن كل معركة فيها خصومة قد يكون لها آثار تتعلق بالرزق ، والرزق تكفَّل الله به لعباده ؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود ، سواء المؤمن أو الكافر ، وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويد الله الممدودة بأسباب الله .

والحق تبارك وتعالى يحترم ملكية الإنسان مع أنه سبحانه رازقه

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٧٦) أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : بلى والله إنّا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

(٢) المحصنة : التى أحصنها زوجها . والمحصنات : العفائف من النساء . [لسان العرب ـ مادة : حصن] .

ومعطيه ، لكن طالما أعطاه صار العطاء ملْكاً لـه ، فإنْ حثَّه على النفقة بعـد ذلك يأخذها منه قـرْضـاً ؛ لذلك يقول سـبحـانه : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فإنْ أنفق المـوسر على المعـسر جعله الله قَرْضـاً ، وتولّى سداده بنفسه ؛ ذلك لأن الله تعالى لا يرجع فى هبَته ، فطالما أعطاك الرزق ، فلا يأخذه منك إلا قَرْضاً .

لذلك يقول تعالى : ﴿هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨)﴾ [محمد]

وفي موضـع آخر يـقول عن الأموال : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[(١)] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)﴾ [محمد] لأن الإنسان تعب فى جمع المال وعَرِق فى سـبيله ، وأصبح عـزيزاً عليه ؛ لذلك يبخل به ، فـأخذه الله منه قَرْضاً مردوداً بزيادة ، وكان الـرزق والمال بهذه الأهمية لأنه أول مَنَاط لعـمارة الـخليفـة في الأرض ؛ لذلك ترك الـحديث عن القـضيـة الأسـاسية هنا ، وذكر هذه الآية التى تتعلَّق بالرزق .

ومن ذلك أيضـاً قـوله تعـالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ .. (٢٣٨)﴾ [البقرة] وقـد ذُكِرَتْ وسط مـسائـل تتعلق بالعـدَّة والكفـارة ، وعدَّة المـتوفَّى عنهـا زوجهـا ، فمـا علاقـة الصلاة بهـذه المسـائل ؟

قالوا : لأن النزاعـات التى تحدث غـالباً ما تُغيِّر النفس البـشرية وتثير حفيظتها ، فإذا ما قمتَ للوضوء والصلاة تهدأ نفسك وتطمئن .

---

(١) أحفاه : ألح عليه فى السؤال أو طالبه بقوة وإلحاح . قال تعالى : ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا .. (٣٧)﴾ [محمد] أى : إن يجهدكم بطلبها ويلح عليكم تبخلوا . [القامـوس القويم ١٦٣/١] .

وتستقبل مسائل الخلاف هذه بشيء من القبول والرضا .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [النور] المحصنة : لها إطلاقات ثلاث ، فهى المتزوجة لأن الإحصان : الحفظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج ، أو هى العفيفة ، وإنْ لم تتزوج فهى مُحْصَنَة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة ؛ لأن عملية البِغَاء والزنا كانت خاصة بالإماء .

و ﴿الْغَافِلاتِ .. ﴿٢٣﴾﴾ [النور] : جمع غافلة ، وهى التى لا تدرى بمثل هذه المسائل ، وليس فى بالها شىء عن هذه العملية ، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ سأل بريرة خادمة السيدة عائشة : « ما تقولين فى عائشة يا بريرة ؟ » فقالت : تعجن العجين ثم تنام بجانبه فتأتى الدواجن فتأكله وهى لا تدرى[1] . وهذا كناية عن الغفلة لأنها ما زالت صغيرة لم تنضج نُضْج المراهقة ومع نُضْج المراهقة نُضْج اليقين والإيمان .

وتلحظ هذه الغفلة فى البنت الصغيرة حين تقول لها : أتتزوجين فلاناً ؟ تقول : لا أنا أتزوج فلاناً ، ذلك لأنها لا تدرى معنى العلاقة الزوجية ، إنما حينما تكبر وتفهم مثل هذه الأمور فإنْ ذكرتَ لها الزواج تستحى وتخزى أن تتحدث فيه ؛ لأنها عرفتْ ما معنى الزواج .

لذلك لما أمرنا الشرع باستئذان البنت للزواج جعل إذنها سكوتها ، فإن سكتتْ فهذا إذْن منها ، ودليل على فهمها لهذه العلاقة ، إنما إنْ

---

(١) قطعة من حديث طويل عن حادثة الإفك أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٦٩ - ٢٧٢ - بشرح فتح البارى) عن عائشة رضى الله عنها وفيه « أن على بن أبى طالب قال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقال بريرة : لا والذى بعثك بالحق ، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله » .

قالت : نعم أتزوجه لأنه جميل و .. و .. ، فهذا يعنى أنها لم تفهم بعد معنى الزواج .

إذن : الغافلة حتى عن مسائل الزواج والعلاقات الزوجية ، ولا تدرى شيئاً عن مثل هذه الأمور كيف تفكر فى الزنا ؟

ثم يذكر ربنا - تبارك وتعالى - جزاء هذه الجريمة : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النور]

وإن كانت الغافلة هى التى ليس فى بالها مثل هذه الأمور ، ولا تدرى شيئاً حتى عن الزواج والعلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فكيف نقول : إنها تفكر فى هذه الجريمة ؟

واللعْن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله ، وأيضاً الطرد والإبعاد عن حظيرة المؤمنين ؛ لأن القاذف حكمه أنْ يُقام عليه الحدُّ ، ثم تسقط شهادته ، ويسقط اعتباره فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فجمع الله عليه الخزى فى الدنيا بالحدِّ وإسقاط الاعتبار ، إلى جانب عذاب الآخرة ، فاللعن فى الدنيا لا يعفيه من عذاب الآخرة .

وقلنا : إن العذاب : إيلام حَيٍّ ، وقد يُوصَف العذاب مرة بأليم ، ومرة بمهين ، ومرة بعظيم[1] ، هذه الأوصاف تدور بين العذاب

(١) - ورد وصف العذاب بالأليم فى ٧٢ موضعاً فى القرآن منها : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ [الإنسان] .

- وورد وصف العذاب بأنه مهين فى ١٤ موضعاً ، منها : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب] .

- وورد وصف العذاب بالعظيم فى ٢٢ موضعاً ، منها : ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة] ، ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾ [النساء] .

وبالإضافة لهذا فقد وصف الحق سبحانه العذاب بأوصاف أخرى ، منها :

- عذاب شديد : ٢١ مرة .
- عذاب مقيم : ٥ مرات
- عذاب الخلد : مرتان.
- عذاب الخزى : مرتان
- عذاب غليظ : ٤ مرات.
- عذاب قريب : مرة واحدة
- عذاب غير مردود : مرة واحدة.
- عذاب السعير : ٤ مرات وغيرها .

والمعذَّب ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الجَلْد ، لكن يهينه ، فهو فى حقه عذاب مهين لكرامته ، أما العذاب العظيم فهو فوق ما يتصوَّره المتصوِّر ؛ لأن العذاب إيلام من مُعذِّب لمعذَّب ، والمعذَّب فى الدنيا يُعذَّب بأيدى البشر وعلى قَدْر طاقته ، أمّا العذاب فى الآخرة فهو بجبروت الله وقَهْر الله ؛ لذلك يوُصَف بأنه عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

نعلم جميعاً أن اللسان هو الذى يتكلم ، فماذا أضافت الآية : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]

قالوا : فى الدنيا يتكلم اللسان وينطق ، لكن المتكلم فى الحقيقة أنت ؛ لأنه مَا تحرَّك إلا بمرادك له ، فاللسان آلة خاضعة لإرادتك ، إذن : فهو مجرد آلة ، أمَّا فى الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه ؛ لأن صاحبه ليس له مراد الآن .

ولتقريب هذه المسألة : ألاَ ترى كيف يخرس الرجل اللبيب المتكلم ، ويُمسك لسانه بعد طلاقته ، بسبب مرض أو نحوه ، فلا يستطيع بعدها الكلام ، وهو ما يزال فى سَعَة الدنيا . فما الذى حدث ؟ مجرد أن تعطلتْ عنده آلة الكلام ، فهكذا الأمر فى الآخرة تتعطل إرادتك وسيطرتك على جوارحك كلها ، فتنطق وتتحرك ، لا بإرادتك ، إنما بإرادة الله وقدرته .

فالمعنى ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور] أى : شهادة ونطقاً على مراد الله ، لا على مراد أصحابها .